السفير

الثلاثاء 2010-05-18 العدد 11593

٥٣٠ طالباً من «اليسوعية» في أرض المقاومة

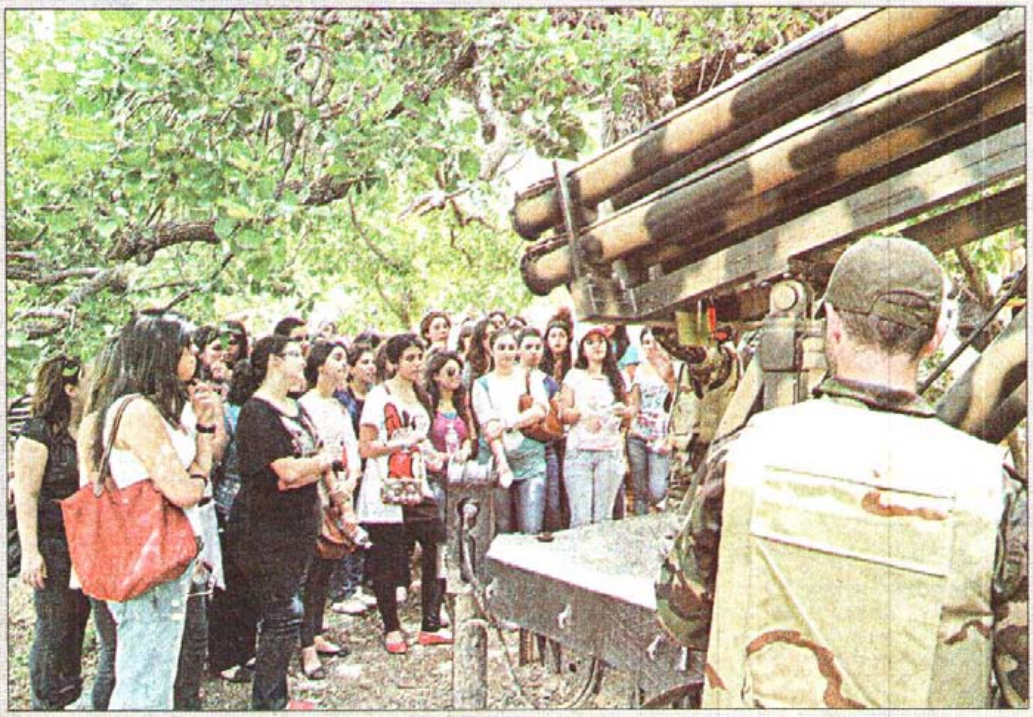

الطلاب في أحد مواقع المقاومة (عباس سلمان)

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

السفير

الثلاثاء 18-05-2010 العدد 11593

ضمّت حوالى ٥٣٠ طالباً من الجامعة «اليسوعية» بأحزابها المختلفة والتقوا بالمقاتلين

رحلة «الهوى جنوبي» إلى قلب سلاح «حزب الله»: فلنقصف «كريات شمونة» الآن!

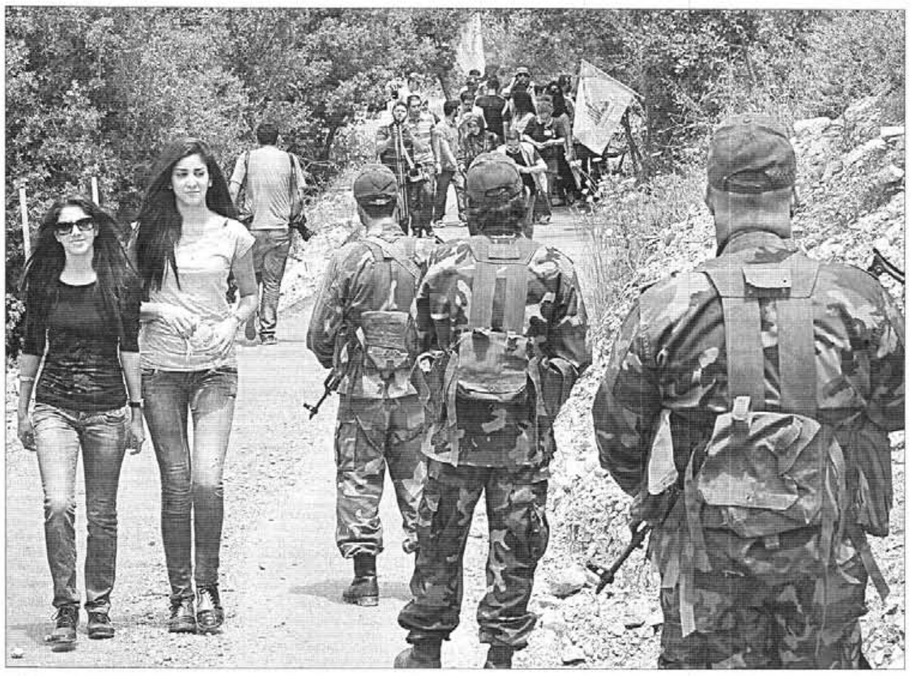

مقاومون ومواطنون في ريحان

(الصورتان لـ: عباس سلمان)

سيتبين لنا، عند وصولنا إلى المحور العسكري التابع لـ«حزب الله»، أن الحافلات التي ركبنا على بعد ثلاثة كيلومترات من الموقع، لم تقف هناك بسبب ضيق الطريق، كما قيل لنا في بادئ الأمر.

انطلقنا في رحلة «الهوى جنوبي» التي نظمتها التعبئة التربوية في «حزب الله» في الجامعة «اليسوعية»، من منطقة «مونو»، صباح أمس الأول، في حافلات كبيرة الحجم بلغ عددها ١١ حافلة، استقر في داخل كل منها ٥٠ طالباً، فيما توزّع ممثلو الوسائل الإعلامية على عدة سيارات. كانت الساعة الثامنة صباحاً.

هي ليست المرة الأولى التي ينظم فيها «حزب الله» رحلة كهذه، إذ سبق لـ«الهوى جنوبي» أن جالت على الجنوب في العامين الماضيين، لكنها المرة الأولى التي سيحظى فيها الطلاب بزيارة نوعية إلى جبل صافي، وبالتحديد إلى محور عسكري يحتوي على آليات وصواريخ لـ«حزب الله»، بمواكبة إعلامية.

وعلى الرغم من أن الرحلة «تقترب» من سلاح المقاومة، إلا أن قيادة حزب الله ليست صاحبة الفكرة ولا هي المبادرة إلى الاقتراح. فقد رفعت التعبئة التربوية في «الجامعة اليسوعية» الفكرة إليها، منذ ثلاثة أعوام، لتأمين زيارة الطلاب إلى الجنوب الذي لا يعرفونه. ثم لمعت الفكرة العسكرية في ذهن بعض الطلاب في العام الماضي، لرغبة شباب الحزب بتعريف زملائهم على ماهية سلاح «الحزب» من جهة، وجمعهم بالمقاتلين في صفوف المقاومة من جهة ثانية.

وبعد تردد، وافقت القيادة على خوض التجربة. وهكذا كان: تم انتقاء جزء من محور جبل صافي، بعد بحث شمل ١٧ موقعاً عسكرياً، خلصت فيه النتيجة إلى أن هذا الموقع هو أقل حساسية من أقرانه. في المقابل، تكفلت التعبئة في الجامعة بتوزيع الدعوات عبر الرسائل النصية والانترنت لجميع الزملاء، من دون دعوة بعض الأحزاب التي تعارض سلاح المقاومة بشكل حاد، كي لا تعتبر الدعوة نوعاً من الاستفزاز، بحسب شباب الحزب. وعلى الرغم من تجنب الدعوة المباشرة، إلا أن بعض الطلاب المناصرين لـ«القوات اللبنانية» و«الكتائب اللبنانية»، انخرطوا في رحلة «الهوى جنوبي» بشكل فردي وبدافع الفضول، لأسباب سيتحدثون عنها في النص أدناه.

يصل موكب الحافلات إلى صيدا، فتنضم إليه ثلاث سيارات تابعة لأمن «الحزب»، والسيارات ذات الزجاج الأسود الداكن، سترافقنا حتى الساعة العاشرة ليلاً، أي إلى حين انتهاء البرنامج. من حيوش إلى النبطية، مروراً بعربصاليم وجرجوع، يصل الموكب إلى تخوم جبل صافي، بعد رحلة بصرية طويلة تشرف على مناظر الجنوب الخلابة. إنها الساعة الثانية عشرة ظهراً. هواء المكيف يداعب وجوه الجميع.

تركن الحافلات إلى جانب الطريق. يستغرب الطلاب ما يجري. فالوصول إلى المحطة الأولى سيتطلب سير مسافة ثلاثة كيلومترات على الأقدام، نظراً لصعوبة سلوك الحافلات للطريق الفرعية الوحيدة، والضيقة. يترجل الطلاب، بعد ربع ساعة، من أماكنهم، ليتوجهوا مشياً إلى النقطة الأولى. يختفي هواء المكيف. الحر شديد.

أشجار خضراء مترامية على طول الطريق. هدوء يكسره نداءات الأصدقاء. اللغة الفرنسية أكثر انتشاراً من بقية اللغات. ضحك. امتعاض. شابة ممشوقة القوام تتبع صديقها، وتحث الخطى. شبان يمشون جنباً إلى جنب. اخضرار يلف المكان. أشعة شمس قوية، توزع نارها على الجميع. تعب.

صورة للذكرى في مارون الراس

تمر دراجة نارية، يستقلها شاب ببزة عسكرية، أمام الحشود اللاهثة. يعود الشاب أدراجه. تحاول سيارة إعلامية شق الطريق إلى المكان المنشود، فترمقها الوفود الشبابية بنظرات متحسرة. منعت الهواتف الخلوية والكاميرات في هذه المحطة، بقيت في الحافلة، باستثناء تلك التابعة للوسائل الإعلامية، على شرط عدم تصوير وجوه مقاتلي «الحزب».

تعبق، على طول الطريق، رائحة غريبة، منبعثة من الأشجار. نصل إلى المدخل منهكين. هو ليس مدخلاً، بل ممر للمحور العسكري: شبان من «القوة الخاصة» في الحزب، يرتدون بزات عسكرية، استقروا وقوفاً بين الأشجار، حاملين على أكتافهم بنادق حربية. خلفهم، رفرف علم الحزب، مجاوراً لصورة الشيخ راغب حرب. تفوح رائحة رصاص. إنها رائحة السلاح.

يعلو صوت الأناشيد الحماسية ويملأ المكان، ويستعاض عنه، بين الحين والآخر، بخطابات لـ«السيد». تشتد أشعة الشمس، وتعكس حرارتها على الأرض الترابية. تتسلق إحدى الفتيات شجرة فارعة، فيما تتسلق مجموعة أخرى لتجلس على أحجار متوسطة الحجم. رجال العسكر ينتشرون بين الصخور. وعسكريون آخرون يتفقدون الزوار بابتسامات متواضعة. صواريخ الـ«كاتيوشا» جاهزة للرمي.

عبارة «السيد» الشهيرة تتكرر على مسامع الوفد: «يا أشرف الناس». صمت جنائزي يلف المكان، وكأنه يوشك على الانفجار. هناك، في الزاوية، شاب ممتعض من «الماراتون»، أي تلك المسافة التي قطعناها حتى وصلنا إلى هنا. هو، وغيره، يتصببون عرقاً. يتذمرون.

يختفي صوت نصرالله. الكلام، الآن، لأحد مدربي الحزب: «أهلاً وسهلاً بكم في أرض المقاومة. أنتم في دياركم. اسمحوا لي أن أخبركم أمراً، مفاده أن المسافة التي قطعتموها سيراً على الأقدام للوصول إلى هنا، لم تكن صدفة، بل تعمدنا ذلك، لتعرفوا غيضاً من فيض ما يواجه المقاتلين على مستوى المشقة، يا سادة، هذا التعب الذي أصابكم ما هو إلا واحد من مليون ما نواجهه. أنتم مشيتم خالي الوفاض، لم تحملوا أي عتاد. ومشيتم مسافة قصيرة».

ثم اعتذر عن هذا المسير بروح دمثة. ودماثته، فرضت عليه أن ينادي زميله «أبا عيسى»، أكثر من مرة، بطريقة أضحكت البعض. وجه أبي عيسى ليس مموهاً بالنظارات الشمسية، على عكس زميله، فيما موهت وجوه بعض الشبان بألوان عسكرية متفاوتة.

ينثر النسيم أوراق الأشجار بخفة متناهية. العتاد العسكري مغطى بالأشجار. يستهل «أبو عيسى» كلمته بسرد قصة قديمة: «اضطر أحد المقاتلين، في يوم من أيام الحرب مع العدو، أن يمشي في الصقيع مسافة ١٢ ساعة وهو صائم، حتى تورمت قدماه من شدة البرد، فأكمل طريقه حافي القدمين، حتى وصل إلى اللويزة. قرر الشاب عدم الاستسلام في مهمته، وكانت النتيجة انفصال لحمه عن عظمه. إنها قصة بسيطة، من قصص هؤلاء الذين يحمون الوطن».

يتطرق «ابو عيسى» إلى باكورة انطلاق «حزب الله»، «التي بدأت بإمكانيات متواضعة، حتى تم إدخال سلاح جديد علينا، وهو العمليات الاستشهادية»، لافتاً إلى عملية أحمد قصير، ثم «الانسحاب الإسرائيلي من الحزام الأمني عام ١٩٨٥ في أقليم التفاح. وهذا السلاح الذي أمامكم، شارك في أهم المعارك، من الانسحاب الاسرائيلي في ٢٥ أيار حتى حرب تموز ٢٠٠٦».

يقسّم المدرب الوفد إلى مجموعتين: ذكور وإناث. ينبه ضاحكاً: «لا تقولوا إن هذا الفصل عنصري! ونرجو من الإناث طرد الشبان في حال تسللوا إليكن». تتجه مجموعة الشبان، بحماسة تشبه كثيراً حماسة شابات الوفد الطالبي، إلى زاوية سلاح الدفاع الجوي، بينما توجهت الشابات إلى منصة «الكاتيوشا». يقول المدرب ياسمين، الفتاة المناصرة لـ«القوات»، تصر على ضرورة دمج سلاح المقاومة بالجيش اللبناني. تحاول ديالا قبيسي إقناعها بضرورة بقائه، لكن ياسمين مقتنعة بفكرتها: «السلاح للجيش». تقول الفتاة «القواتية» الهوى إنها حبذت الانضمام إلى الرحلة لسبر أغوار الجنوب من جهة، والتعرف على مقاتلي «الحزب» من جهة ثانية. وتردف إنها «وجدتهم عاديين، مثلهم مثلنا. لم أتخيلهم هكذا!».

الآراء متعددة، والدوافع أيضاً. هناك من قرر المجيء للتعرف على الجنوب، وهناك من أراد أن تكون هذه الرحلة تأكيداً على دعمه للمقاومة، كليال نصّار التي اكتشفت «حقيقة أن يكون الجنوب مطمعاً لإسرائيل»، فيما لم يتغير رأي كاتيا المناصرة لـ«الكتائب اللبنانية»، سوى في أنها «عرفت كم يتعب هؤلاء الشبان. إطلاق الصواريخ ليس مجرد كبسة زر». أما نادر فخر، المنضوي في «الحزب التقدمي الاشتراكي»، فقد «تعرفت على الجنوب عن كثب. وأدركت تواضع مقاتلي الحزب، على عكس ما تخيلته عنهم، تخيلت أن يكونوا متكبّرين».

تتأبط لينا صانع ذراع صديقتها. الفتاة التي وفدت من أفريقيا، تنصت إلى شرح المدرب العسكري عن صواريخ «الكاتيوشا». يقول المدرب إن هذه المنصة تستطيع أن تطال «كريات شمونة»، فتسأل إحدى الفتيات: «هل نستطيع أن نرمي الآن؟». سؤال عسكري آخر: «ما هو الفاصل الزمني بين الصاروخ والآخر؟». الجواب: «ثانية واحدة، بين كل من صواريخ المنصة الثمانية».

في الزوايا الأخرى، شرع المدربون يشرحون عن أسلحة أخرى: الـ ٢٣ هو سلاح الدفاع الجوي، والذي استخدم كإسناد للشبان في الهجوم، والـ ١٠٦ هو المدفع الإيراني الحديث الصنع، والذي استخدم ضد الدبابات والمواقع المحصنة والأفراد. ماذا عن الـ«سكود»؟ سأل أحدهم، فقهقه الشبان.

يعتبر إيلي بو صالح، الشاب العشريني، أن «مجرد السماح لنا بالدخول إلى أماكن حساسة كهذه، يحتم علينا الإحساس بالمسؤولية والثقة من قبل الحزب»، لافتاً إلى أنه «لم أستطع كبح مشاعري. تخيل أننا تذمرنا من المسافة التي قطعناها! إنها نقطة في بحر تعب المقاتلين». زيارة بوصالح ليست الأولى إلى الجنوب، لكنه قرر المشاركة في الرحلة بغية تعريف صديقته على المنطقة، وأداء عسكر «حزب الله».

بعد محطة الغداء في مطعم «أكاسيا» في مجدل سلم، توجه الموكب إلى مارون الراس. فلسطين المحتلة، قريبة جداً من هنا. نحن على مقربة من مستعمرة «أفيفيم». يركض الطلاب، بحماسة، من المنتزه الإيراني إلى أسفل الوادي، للمشاركة في رسم كلمة «الصهيونية» بالعبرية. يتلاشى الحبر.

تتكون صورة جميلة مع الغروب. غروب فلسطين، وليس لبنان. الصورة الجميلة، تكاد توازيها جمالاً صورة الشبان الذين قطعوا مسافة طويلة إلى أسفل الوادي. هناك آلية عسكرية للجيش اللبناني. كذلك، استنفر الجيش الاسرائيلي، وأجرى عناصره اتصالاً بقوات الطوارئ الدولية، التي تولت التنسيق مع الجيش اللبناني. إنها الساعة السابعة مساءً.

تُرسم أحرف كلمة «الصهيونية» بالعبرية. شبّان يحملون أقمشة بألوان الأحزاب السياسية يتقدمون. صوت رصاص يدوي في الأفق، مصدره مكبرات صوتية. الألوان تتحول إلى جسم واحد: العلم اللبناني. العلم يفكك كلمة «الصهيونية»، ويحطمها. لبنان، بكافة ألوانه المتناحرة، يكسر الكلمة الإسرائيلية. يكسرها افتراضياً، على حدود إسرائيل. «إنها فلسطين، وليست إسرائيل»، تلفت صحافية فرنسية.

جعفر العطّار

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"